مقدمة المؤلف

"أنا يهودي شرق أوروبي [أوست يودي]، ووطننا حيث يرقد موتانا." هكذا قال المليونير هنري بلومفيلد، في رواية "فندق السافوا" لجوزيف روث، قالها حين كان يزور قبر أبيه جيشيل بلومفيلد. تجمع هذه العبارة بين جنباتها التاريخ الكامل "ليهود شرق أوروبا" (الذين يشار إليهم أحيانا باسم "أوستيودن"). لا يشير مصطلح "أوست يودن" ببساطة إلى "اليهود الموجودين في شرق أوروبا" لأنه رغم تشكلهم كنمط مميز هناك فإنهم موزعون في جميع أنحاء العالم. لقد تركوا وراءهم موتاهم في كثير من البلاد، وغالبا ما ظلت الذاكرة وطنهم الوحيد.

يضرب أحد جذور الذاكرة في المنطقة التي شهدت نشأة يهود شرق أوروبا في القرن الثامن عشر وتشكلهم في القرن التاسع عشر: بولندا القديمة. من ثم، يقع تاريخ يهود شرق أوروبا البولنديين- في ظل أنظمة الحكم المختلفة التي تتابعت عليهم بعد تقسيمات بولندا ما بين عامي ١٧٧٢ و١٨١٥- في صلب موضوع هذا الكتاب. من هذا المنطلق، يأتي التصوير الدقيق لتاريخ اليهود في أوروبا الشرقية بأكملها مثل تاريخ يهود شرق أوروبا وانتشارهم في المنطقة ومواجهاتهم مع يهود غرب أوروبا. بهذه الطريقة، تظهر سماتهم المميزة وتراكيب الحياة اليومية بشكل أكثر وضوحا. إن استعراض الظروف المحيطة بعملية هجرة اليهود إلى بولندا يتجاوز نطاق هذا المؤلف. بالمثل، لم يزد الكتاب عن الإشارة الموجزة إلى مصير يهود شرق أوروبا في القرن العشرين. للقارئ أن يستزيد من المعلومات في هذا الصدد من مصادر أخرى. نهدف أن يكون هذا الكتاب مقدمة تعيد إلى الأذهان تاريخ يهود شرق أوروبا وأسلوب حياتهم- وهو ما يمثل جزءا من تاريخنا. إن قارئي اللغة الإنجليزية تتوافر بين

أيديهم الكثير من الدراسات – التي تتفاوت في درجة تخصصها– حول تاريخ اليهود؛ خاصة هؤلاء الذين عاشوا في وسط وشرق أوروبا. بيد أنه لا يوجد مؤلف يتسم بشمولية هذا الكتاب. إضافة إلى ذلك، تركزت دراساتي على دور اليهود في المنطقة كوسطاء بين طبقات المجتمع المختلفة والبنى الاقتصادية المتباينة. اقدم في هذا الكتاب كيفية تطور هذا الدور وتغيره عبر القرون، وإن كنت أقدمه بشكل مجمل. واضعا كل هذا نصب عيني، أقدم هنا وصفا للقضايا الدينية والثقافية بالتواز مع القضايا الاجتماعية والاقتصادية دون أن أزعم أنني ازيد على تلخيص النتائج التي توصل إليها من سبقوني في دراساتهم. كان هدفي هو استثارة فضول القارئ وتشجيعه على الانشغال بتفاصيل هذا الموضوع. وكي أجعل هذا العالم "المستغرب" غالبا أكثر وضوحا، استخدمت أيضا مصادر أدبية حتى حين تعني الرخصة الشعرية في تأليفها أنها انعكاسات غير مباشرة للواقع. قد تبدو بعض أجزاء هذا الكتاب في رأي كثير من القراء أولية أو حتى غير ضرورية. لكن الخصائص الرئيسة للديانة اليهودية والحياة الأسرية اليهودية (مثل البار ميتسفاه [شعائر بلوغ سن التكليف الديني]، وشعائر السبت وما إلى ذلك) غير معروفة لمعظم الجيل الحالي من الألمان. في الوقت ذاته، في بريطانيا وأمريكا خاصة في المناطق الحضرية، تنتشر المعرفة بهذه الخصائص بل وقد يحضر الكثير من غير اليهود إحدى هذه المناسبات. على الأرجح يحظى المؤلفون الذين يكتبون عن حياة اليهودية في الماضي– مثل إسحاق باشيفيس سينجر– بشهرة أكبر لدى القارئ الإنجليزي عنها لدى القارئ الألماني. إن تواجد يهود أورثوذوكس في نيويورك أولندن أو تورنتو يتحدثون اللغة اليدشية ويحتفظون بالكثير من أنماط الحياة الخاصة بأماكن نشأتهم– أي أوروبا الشرقية– يجعل من موضوع هذا الكتاب أقل "غرابة" هناك عنه بالنسبة للقراء في ألمانيا والنمسا ما

بعد *الشواة* (الهولوكوست باللغة العبرية). يعتذر المؤلف إلى هؤلاء الذين يشعرون أن في هذه التفسيرات "استعراضا للمعرفة" وأدعوهم لإغفال قراءتها.

أود تفسير الكلمة الألمانية (أوست يودن) التي اخترت الإبقاء عليها كما هي: إنه مفهوم لا يعكس معانيه بالكامل المصطلح الجغرافي المحض "يهود أوروبا الشرقية". (علاوة على ذلك، فإن مصطلح أوروبا الشرقية يفهمه البريطانيون والأمريكيون مثلاً فهما مختلفاً عن غيرهم). يوجد تفسير أدق لهذا المفهوم في الجزء الثاني من هذا الكتاب. أخيرا، أود إبداء ملحوظة على أسماء الأشخاص والأماكن – خاصة في منطقة الكومنولث التاريخي الليتواني- البولندي. من الطبيعي أن نجد في الكتب الألمانية إشارة إلى عاصمة سيليسيا – بالبولندية وروكلو- باسمها الألماني بيرسلاو، كما اعتاد المواطنون الألمان بالمناطق المستقلة أن يفعلوا لقرون. غير أن القارئ في العصر الحديث لن ينجح في العثور على مدينة بيرسلاو في الأطلس المعاصر. ولتفادي شبهة نية الانتقام سياسي في هذا الشأن- وهو الأمر الذي يثير حفيظة أهل المنطقة لأسباب مفهومة- في هذا الكتاب وردت أسماء الأماكن (وأحيانا الأسماء السلافية وغيرها من أسماء الأشخاص) في شكلها المتداول حاليا والموجود في الخرائط الحديثة أو في المؤلفات الأكاديمية. لمزيد من الإيضاح، حين يرد الاسم لأول مرة في الكتاب أضيف إلى جانبه البدائل المعروفة بين أقواس.

أود أن أتوجه بالشكر إلى عدد من المؤسسات التي ساندت بعض المشاريع البحثية التي استطعت التعويل على نتائجها مثل مؤسسة فولكس فاجن والمجلس الألماني للبحوث والصندوق الوطني السويسري لتطوير الأبحاث العلمية والهيئة الألمانية للتبادل الأكاديمي وأكاديميات العلوم البولندية والتشيكوسلافية. أود أيضا أن أشكر العاملين بالأرشيف والمكتبات بمدينة وارسو ولودز وبراغ وفرايبورج

ببراسجاو وبازل لتعاونهم. لقد تمكنا من إدراج الخرائط التوضيحية بهذا الكتاب بفضل جوانا برانسكا وقد ساعدتها كاثرين شوت في الحصول عليها والانتقاء من بينها. سعدت بتلقي نصائح غالية من زملائي بما فيهم د. جيرجين هينسيل والبروفيسور جيرزي توماسفيسكي وبروفيسور فيليكس تيش إلى جانب زملائي في حلقة البحث التاريخية بجامعة بازل. هذا الكتاب مهدى إلى جوتفريد شرام التي حفزتني تساؤلاتها حول تاريخ الأوست يودن بشكل كبير والتي تابعت عملي بإظهار التعاطف وإسداء النصح وتوجيه النقد.

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الألمانية عام ١٩٩٠. قوبلت بترحاب شديد حتى أن الطبعة الخامسة صدرت عام ١٩٩٩. صدرت لهذا الكتاب ترجمات باللغة الإيطالية واليابانية والتشيكية والبولندية. يسعدني أنه- بعد بعض التأخير- صدرت الآن طبعة باللغة الإنجليزية للقراء المهتمين بهذا الموضوع. كانت فكرة التوجه إلى دار نشر سنترال يوروبيان برس فكرة لاري وواف. قدم يانوس باك الدعم السخي ليظهر هذا الكتاب إلى الوجود. علاوة على ذلك، أسدى لي النصح مثله في ذلك مثل هايديماري بيترسون فيما يتصل بتنقيح النص. قام جيمس باترسون بترجمة الكتاب بنزاهة. أتوجه إليهم بعميق شكري ولأي شخص آخر مد لي يد العون.